## الفصل الثانى

# خبير «اللسان التركى»

فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، أسهم المفكرون الألمان فى تشكيل ملامح العالم "المعاصر". إن ألمانيا لم تحقق وحدة أراضيها إلا فى عام ١٨٧١، ولم تكن إمبراطورية كولونيالية بما تعنيه الكلمة إذ لم تدان - فى هذا الصدد - غيرها من كولونياليات شهيرة ... إلا أن عقول أبنائها وقرائحهم قد عوضت ذلك، عقول وقرائح نزعت أربعة أركان المعمورة فكان لها صيت ونيوع.

لقد جاءت النظريات وتواترت الأفكار تغزو هذا البلد وتغمر ذلك القطر لتعيد كتابة تاريخ المجتمعات وتطبع "بصمة" ألمانية على غير جزء من أجزاء البسيطة لم تطأها سوى قلة من أقدام "جرمانية". فعلى سبيل المثال، قاد "الكسندر فون هومبولت"، خلال القرن التاسع عشر، حملات استكشافية إلى أمريكا اللاتينية، حيث كان له قصب السبق فى إعطاء وصف "علمى" لبلدان القارة، فضلا عن إرسائه لقواعد علمى "الجغرافيا الفيزيائية" و"الأرصاد الجوية".

هذا، وقد شغف الباحثون الألمان كثيرا بالمشرق - ذلك الامتداد الهائل من أراضى المعمورة الممتد ما بين تركيا واليابان. واليوم، فإن قلة فقط هى من تذهب إلى استخدام لفظة "المشرق"، وذلك الاستخدام المحدود للفظة يرجع إلى كونها تجمع فى كفة واحدة أناسا وأماكن لا ينتظمهم رابط مشترك سوى وجودهم إلى

الشرق من القارة الأوروبية. ولكن - قدما - كانت اللفظة تلهب الخيال. فحين صك الجغرافى الألمانى "فرديناند فون ريشتهوفن" مصطلح "طريق الحرير" خلال القرن التاسع عشر ليصف طريق التجارة القديم الذى كان يربط ما بين الصين وأنطاكية التركية مرورا بآسيا الوسطى ... عمد المستكشفون الألمان إلى تسيير حملات استكشافية لإثبات وجود ذلك الطريق. كذا، فقد انضم علماء الآثار والأحفوريات إلى الركب حيث قاموا بسلب مواقع الحج الخاص بالبوذيين ومراكمة بعض محتوياتها بالمتحف الإثنوغرافى ببرلين. ثم أعقب ذلك انتعاش الطموح بل المطامع السياسية. ففى بدايات القرن العشرين، سعى القيصر الألمانى "فيلهلم الثانى" إلى بسط نفوذ ألمانيا فى "المشرق"، حيث قام بزيارة كل من اسطنبول ودمشق. أما خلال الحرب الكونية الأولى، فقد سعى دبلوماسى ألمانى يدعى "فيلهلم فاسموس" Wilhelm Wassmuss، أو "لورانس العرب الألمانى"

- إلى إقناع الخليفة العثمانى بإعلان النفير إلى الجهاد ضد الحلفاء. وقد ذهب بعض المؤرخين من أمثال "بيل برايس" إلى اعتبار ذلك أول استخدام معاصر لمفهوم الجهاد - وذلك كما ورد فى كتابه "جواسيس الحرب الكونية الأولى".

أما الملمح المسيطر على هذا النسق فكان ما أفرزته "القرائح الألمانية" من بحوث ودراسات. إذ سبرت العقول الألمانية الفذة أغوار العديد من المناحى بالمشرق. فقد كتب "اغناتس غولدتسيهر"، المستشرق اليهودى الهنغارى، واحدا من أوائل ما كتب عن تاريخ التقاليد الإسلامية. أما شيخ المستشرقين الألمان "تيودور نولدكه"، فقد كتب تاريخا للقرآن حيث أورد طروحات ذهبت إلى أنه ليس وحيا من السماء ... فهو ينطلق من كون القرآن نصا أدبيا بشريا ... (وهو ما يعد أمرا محظورا محرما فى بلدان العالم الإسلامى). وفى ثلاثينيات القرن العشرين، انضم إلى زمرة ذلك الهيكل عضو جديد ... إنه "غرهارد فون منده".

لم يكن لفون منده بنيان يميزه، إذ افتقر إلى التناسق الجسدى بقامة بلغت ١٧٣ سم، ووزن لم يتعد الـ ٦٤ كيلو جرام. أما شعره فكان أشقر وأما عيناه فزرقاوان، ذو أسنان غير منتظمة ووجه مستدير منتفخ. وكانت إحدى عينيه غير قادرة على متابعة ما تقع عليه، أما الأخرى فكانت كأنما تبالغ فى تعويض هذا العيب، الأمر الذى جعله يبدو ناظرا إلى اتجاهين فى آن واحد.

كان ميلاد فون منده فى الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٤ فى مدينة "ريغا" عاصمة "لاتفيا" حيث الأقلية الألمانية ذات النفوذ، التى هى سليلة الفرسان والتجار "الجرمان" الذين استقر بهم المقام على سواحل بحر البلطيق إبان العصور الوسطى، وظل بأيديهم زمام الحياة التجارية والثقافية حتى حلول القرن العشرين. وكغيره من أفراد الأقليات الإثنية العديدة، كان فون

منده يتحلى ببعض من مآثر تليدة لامرئ نأى به المقام عن موطنه الأم ... كان دمثا جم الأدب شديد الانتباه لما يقول محدثوه. أما لباسه فكان محافظا - فبزاته مكونة من قطع ثلاث تشى بملمح ذى مسحة إنكليزية. ولم يكن يروق فون منده أن يكون حليق الفودين على الغرار العسكرى أو أن يعمد إلى محاكاة النمط "الهتلرى" فى الهيئة، إنما احتفظ بشعره قصيرا مرجلا إلى الخلف، وهو مظهر حرص على استدامته حرصه على استدامه اتساق سلوكياته وأخلاقه ... ذلك المظهر الذى جعل الناس يصفونه بأنه متأنق حسن الهندام. "لقد كان طويل القامة نحيفا ذا شموخ" قالها "ايرنفريد شوته" - زميله القديم بالأوستمنستريوم واصفا إياه ... "كان رجلا بحق، خفيض الصوت ولكن ماضى العزم".

كان فون منده شعلة من نشاط كأنه جذوة نار لا تفتر عزيمته ولا تلين قناته ... دءوب فى عمله لا يكل ولا يمل، وكان جانب من نجاحاته نابعا من كونه اجتماعيا منفتحا على الآخرين ... إذ كان دائم الانطلاق يستهويه أن يعب بعضا من كئوس "الفودكا" صحبة رفاقه. لقد كان -بحق- مهندس العلاقات الاجتماعية وخبير التواصل مع الآخرين أيا ما كانت مشاربهم أو انتماءاتهم ... فتارة تجده حاضرا فى أعلى الدوائر الثقافية حضور الند للند، وأخرى تلفاه رفقة سائق السيارة متبسطا سمحا لا تعروه غضاضة. إن تجارب حياته الباكرة جعلته أريحيا يهش للناس كافة على تباين أقدارهم واختلاف منازعهم، كذا فإن عددا غير قليل من مآس وخطوب قد أنضجت عزيمته وجلمدت شكيمته فصار عازما على النجاح لا يرضى عنه بدلا ولا حولا.

وحين بلغ فون منده الرابعة عشرة - عقيب هزيمة ألمانيا فى الحرب الكونية الأولى - قام الجيش الأحمر بغزو "لاتفيا" وعمد البلاشفة إلى تطويق "الطبقة

البورجوازية" هناك، وإرغام أفرادها على التقاطر فى صفوف للبت فى أمرهم ... وفى صف من تلك الصفوف كان والد فون منده - ذلك المصرفى - الذى أمر بالتنحى عن الصف ليرديه البلاشفة قتيلا. وكغيرها من عائلات ألمانية-بالطيقية عديدة، نزحت عائلة فون منده صوب ألمانيا، إلا أن البلد لم يكن - بحال - أفضل من لاتفيا، بل كادا يستويان ... فالإمبراطورية القيصرية قد مزقتها يد الفوضى وخيم عليها شبح التضخم ... ما جعل العائلة تتراجع كثيرا إلى مستويات دنيا بالسلم "الطبقى". أما الأم، واسمها لويز فون منده (روسية ولدت فى سان بطرسبورغ فى الحادى والعشرين من شباط/ فبراير ١٨٧٩) والتى صارت ألمانية عام ١٩٢٤ - فقامت برعاية الأسرة وإعالتها عن طريق العمل سكرتيرة ومدرسة خصوصية لبعض من أبناء النبلاء الألمان، بينما اختلف فون منده إلى مدرسة تجارية انتظم ضمن صفوفها بفضل معاونة جمعيات التضامن الألمانى/ البالطيقى فى تكافلها لخدمة المهاجرين من ذوى الإثنية الألمانية ممن نزحوا إلى البلاد.

حين كان فون منده شابا كدح كثيرا وأكدى كبحار وعامل بمنجم للفحم وعامل بأحد خطوط التجميع ... ليلى ذلك قيامه بالعمل على مدار سنوات أربع كعامل مبتدئ بإحدى الشركات التجارية الألمانية. وفى عام ١٩٢٧، تحصل لديه قدر من المال يكفى للوفاء بمصروفات للتعليم فترك عمله والتحق بجامعة برلين. حينها ... كان قد بلغ الثالثة والعشرين ما جعله يكبر معظم طلاب السنة الأولى بأربعة أعوام، إلا أن ذلك لم يكن ليحول دون صعود نجمه فى سماوات "الأكاديميا" الألمانية العليا.

فى ذلك الوقت كانت برلين مركزا عالميا للدراسات الروسية، فقد قام المؤرخ

والسياسى الألمانى "أوتو هويتسش" بتحويل جامعة برلين إلى بؤرة جذبت العديد من الأكاديميين الموهوبين من أمثال الدبلوماسى الأمريكى الشاب "جورج فروست كينان"، الذى دشن لاحقا سياسة "الاحتواء" مع الاتحاد السوفييتى، فضلا عن كونه أحد أقطاب سياسة "الحرب الباردة" ومهندسيها. أما البلاشفة فقد قصدوا المدينة، بصورة منتظمة، حيث خالطوا اللاجئين والمهاجرين هناك فأضفوا ملمحا خلافيا مثيرا للجدل ضمن الأروقة الأكاديمية. هذا، وقد انصب اهتمام فون منده على "الدراسات الروسية المعاصرة" وعلم الاقتصاد. وفى خلال ستة أعوام فقط حصل على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. كذا، ففضلا عن إجادته الروسية والسويدية واللاتفية، فقد أبهر من حوله بقدرته الفطرية على اكتساب لغات جديدة قام بتعلمها. ففى أثناء دراسته، أتقن فون منده التركية تماما بما فيها تلك اللهجات "التركية" المختلفة المتحدث بها فى الاتحاد السوفييتى، ناهيك عن العربية والفرنسية والإنكليزية. وبعد ذلك بسنوات قلائل حين التقى امرأة نرويجية ستصبح زوجته لاحقا - عمد إلى تعلم لغتها لدرجة إبهام المارة عند المعبر المؤدى إلى العاصمة النرويجية، أوسلو، أنه من بنى جلدتهم.

لقد كان زواج "غرهارد فون منده" من "كارولين اسبيزيت" أمرا انطوى على مخاطرة للزوج ... ذلك الزوج الذى شرع يرقى مدارج الشرائح الطبقية أعلى فأعلى. أما الزوجة فكانت قد اكتسبت تعليما جيدا فضلا عن جاذبيتها وجمالها، إلا أنها كانت اختيارا غير مأمون العاقبة، إذ اتسمت بالاستقلالية وتغليب العاطفة فقد كانت ترى نفسها ... "فنانة". وقد وفدت كارولين - (المولودة فى "هاوغسند" بمقاطعة "روغالاند" النرويجية فى الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٣) - إلى ألمانيا فى نهايات العقد الثالث من القرن العشرين فى

تطواف ثقافى حيث تأثرت كثيرا بالفورة الإبداعية فى مجالى الفنون والأفكار، وأعجبت بذلك المنحى أيما إعجاب. وقد كانت مدرسة "الباو هاوس" فى المعمار والمدرسة التعبيرية فى التصوير والتأويلات الجديدة للتاريخ - لتبدو جميعها مخرجا من نفق "القومية" المظلم. وعقب عودتها إلى أوسلو، حفزتها "مدرسة التحليل النفسانى" ... تلك المدرسة التى جادت بها قرائح العالم المتحدث الألمانية ... كى تكتب رواية تقدمية طليعية عن مآسى الحرب وما خلفته من دمار. لقد تناولت "كارولين" فى روايتها "جروح ما تزال نازفة"، التى كتبتها بالنرويجية، والصادرة عام ١٩٣١ - قيام أحد الضباط الألمان ممن خاضوا غمار الحرب الكونية الأولى ببث مكنون صدره لطالبة نرويجية صغيرة من طلبة بعثات التبادل. وأوردت "كارولين" كيف كان الرجل السادى يضرب الفتاة التى كانت تجعله - تحت إلحاحها - يطارحها الغرام. هذا، وقد أحدثت الرواية فضيحة مدوية فى النرويج حيث دينت "كارولين" بتلطيخ سمعة البلاد.

وإزاء استشعارها مرارة وألما، ارتحلت "كارولين" ثانية إلى ألمانيا، حيث حصلت على وظيفة تمثلت فى مرافقة بعض الطلاب والأكاديميين الفرنسيين فى تطوافهم فى وادى "الراين". أما المرشد فكان "فون منده" الذى كان يتكسب معاشه بالتوازى مع قيامه بإعداد أطروحته للدكتوراه ... وهنا جمع الحب بين قلبيهما فتبعت "كارولين" حبيبها إلى برلين ثم إلى "برسلاو"[١٩]، حيث استكمل دراسته. وفى أعقاب علاقة غرامية حفلت بزوابع وتقلبات - إذ أحيانا ما دفعه مزاجها المتقلب إلى الابتعاد - عقد الاثنان قرانهما ... حيث كانت "كارولين" ضمير زوجها ومرآته عند مفتتح زواجهما، لتصبح لاحقا نصيرته المتفانية وكاتبته وناصحه الأمين.

وفيما كانت ممارسات "كارولين اسبيزيت" الكتابية تخبو وتنطفئ جذوتها،

كان نجم "فون منده" صاعدا فى هذا المجال ... إذ نال درجة الدكتوراه من جامعة برسلاو عام ١٩٢٣، وكان موضوع أطروحته "دراسات حول الكولونيالية فى الاتحاد السوفييتى"[٢٠]، حيث تناول بنية الاتحاد السوفييتى المكونة من فسيفساءات إثنية متشابكة. أما عام ١٩٣٦، فقد شهد صدور أهم كتبه وأبعدها أثرا، وهو كتاب "الكفاح القومى للشعوب التركية فى روسيا"[٢١]. كذا، فقد نال "فون منده" لاحقا دكتوراه أخرى من المعهد العالى للعلوم الاقتصادية ببرلين، وكانت حول "الدراسات السلافية".

أما أطروحة كتاب "الكفاح القومى للشعوب التركية فى روسيا" فقد كان لها أثر مدو ... تلك الأطروحة الذاهبة إلى تشكيل الأقليات غير الروسية فى الاتحاد السوفييتى لكتلة من المواطنين الساخطين المهمشين ... وكان الكتاب أول كتاب - بلغة غير روسية - يصف الوعى السياسى المتنامى لتلك الأقليات. أما "فون منده" فقد رأى الصراع الرئيسى صراعا بين "الإثنيات التركية" (وهم اليوم الأوزبك والقازاخستانيون والقيرغيز والتتر) من جهة، وبين الدولة البلشفية من جهة أخرى. وفى هذا الصدد، حذر "فون منده" من أنه ما لم يوجد دعم خارجى لتلك "الإثنيات التركية"، فلن تقوى على تحقيق استقلالها - قائلا إنه "نظرا للوحدة السياسية للاتحاد السوفييتى ذات الملمح الصارم، واتسام سلطاته بالمركزية الشديدة، والروابط الاقتصادية التى تنتظم أرجاءه كافة ... فإنه لا يمكن توقع حدوث تغير فى أوضاع تلك الإثنيات التركية إلا فى حالة تعرض الاتحاد السوفييتى نفسه لصدمة جذرية مروعة. حينها سيكون واضحا ما إذا كانت سياسة الانفصال السوفييتية قد حققت هدفها أم لا ... ذلك الهدف المتمثل فى تشظى الشعوب ذات الإثنية التركية إلى العديد من البلدان الصغيرة غير ذات الشأن".

وقد كان ما خلص إليه "فون منده" نبوءة صدقت - سواء فيما يتعلق بالحرب الكونية الثانية التى اندلعت لاحقا، أو فيما يتعلق بما جرى بعدها بعقود قلائل. فوفقا لتوقعاته، فقد نالت تلك الشعوب استقلالها فقط بعد "الصدمة الجذرية المروعة" التى تنبأ بها - والتى تمثلت فى انهيار الاتحاد السوفييتى وانفراط عقده - لا عن طريق جهودها فى هذا الصدد. كذا، فقد كان "فون منده" بعيد النظر فى تشككه فى مدى فاعلية تلك البلدان الناشئة - وهنا يجدر بالمرء التمعن فى أحوال ذلك الإقليم وديكتاتورياته العقيمة التى تثبت أركانها وتعضد عروشها بواسطة ما تتحصل عليه من إيرادات النفط والغاز الطبيعى.

فإذا ما كان "فون منده" قد واصل مسيرته تلك كباحث فى ذلك المجال، لكان قيض له شأن وشأو عظيمان ... إذ كان ليضحى أحد كبار الخبراء العالميين فى سياسات كل من الاتحاد السوفييتى وآسيا الوسطى. إلا أنه، وبالمقابل، قد سلك دربا مغايرا. إذ إنه حين أمسك النازيون بزمام السلطة فى عام ١٩٣٣، كان فون منده قد شرع فى قرع أبواب "السياسة" ليدلى فيها دلوه. ففى ذلك العام، انضم "فون منده" إلى "كتيبة العاصفة"[٢٢]. وقد كتبت "كارولين اسبيزيت" فى مذكراتها أنه أقدم على ذلك لأنه كان بحاجة إلى دعم سياسى وموآزرة فى ألمانيا فى حالة هجوم السوفييت أو حملهم عليه لكونه يتناول موضوعا ذا حساسية فى كتاباته. وبالفعل، كان السوفييت قد رفضوا طلبه الحصول على فيزا (تأشيرة) بحجة أنه جاسوس وليس أكاديميا بحق.

وعلى جانب آخر، فلربما كانت دوافع "فون منده" ذات طبيعة انتهازية. فرغما عن أخلاقه الدمثة، إلا أنه قد عانى العديد من الشدائد فضلا عن كونه قد شهد تقويض السوفييت لأركان أسرته. أما النازيون فقد كانوا تواقين إلى بناء

"إمبراطورية ألمانية جديدة" على أراض يحتلها السوفييت ... وقد كان فون منده واحدا من خبراء العالم القلائل فى الاتحاد السوفييتى خاصة فيما تعلق بنقاط ضعفه التى يمكن استغلالها. كذا، رأى فون منده فى "الحركة النازية" ظهيرا ذا سطوة ونفوذ فرغب حينها فى الانضمام إلى صفوفها والانخراط فى ركابها.

إلا أن الانضمام إلى "النازى"، حينذاك، لم يكن بالأمر اليسير، فبحلول عام ١٩٣٢ عمد "الحزب النازى" إلى عدم قبول أعضاء جدد فى محاولة منه لمنع أولئك الذين رغبوا فى "ركوب الموجة" فحسب. إن الأشخاص التواقين إلى الانضمام للحركة النازية غالبا ما كانوا يلتحقون بكتيبة العاصفة ... تلك الكتيبة التى اشتهرت بقواتها "العاصفة"، وقوامها فتية مستأسدون ينتمون إلى الطبقة العاملة قاموا بمذابح وهجمات ضد الأعداء ... وفضلا عن هؤلاء الفتية، فقد انضم إلى الكتيبة كثيرون آخرون. ومع إمساك النازيين بزمام السلطة، ازدادت معدلات الانضمام إلى الكتيبة زيادات مهولة من ٦٠٠٠٠ فرد عام ١٩٣٠ إلى ٢٠٠٠٠٠ فرد عام ١٩٣٣ .

وفى عام ١٩٣٦، ترك فون منده "كتيبة العاصفة". فوفقا لما تداولته العائلة، فإن "كارولين اسبيزيت" قد اشترطت عليه ترك الكتيبة لإتمام زواجها منه. وبالفعل، فقد تزوج الاثنان فى الحادى والثلاثين من آيار/ مايو ١٩٣٦ فى مسقط رأس "كارولين" بالنرويج عقيب أن ترك الكتيبة. أما وفقا لأوراق سيرته الذاتية، فقد أورد "فون منده" أنه ترك الكتيبة لأن مهاما تدريسية جديدة (إضافية) لم تترك له وقتا لممارسة أى نشاط سياسى. إلا أنه سرعان ما هوى نجم "كتيبة العاصفة". ولعل "فون منده" قد فطن، آنذاك، إلى أن اختياره لذلك "الحزب الفاشستى" قد جانبه الصواب. هذا، وعقيب انضمام "فون منده" إلى صفوف

الحزب، قام هتلر بإطاحة "ارنست غونتر روم" - زعيم "كتيبة العاصفة" فى انقلاب دموى عرف بـ "ليلة السكاكين الطويلة" ... Nacht der langer Messer ذلك الانقلاب الذى جرت أحداثه ما بين الثلاثين من حزيران/ يونيو والثانى من تموز/ يوليو ١٩٣٤ ... وسرعان ما فقدت "كتيبة العاصفة" نفوذها وسلطتها.

وعلى أية حال، جعلت تلك التجربة "فون منده" مهددا سياسيا. فبعيد صدور كتابه "الكفاح القومى للشعوب التركية فى روسيا"، عرض عليه وظيفة أستاذ مساعد فى جامعة برلين. أما العرض فقد هوجم فى الحال من رجل تغمره الحيوية بيد أنه غير مأمون النقيبة - "أوسكار ريتر فون نيدرماير" (١٨٨٥ - ١٩٤٨) - وهو عسكرى ومغامر سعى إلى إشعال فتيل الجهاد فى وجه بريطانيا إبان الحرب الكونية الأولى. ويعرف "نيدرماير" - شأنه فى ذلك شأن "فيلهلم فاسموس" المذكور آنفا - بأنه "لورانس العرب الألمانى". هذا، وقد شغل "نيدرماير" منصب رئيس معهد "الجغرافيا العسكرية والسياسة" التابع لجامعة برلين حيث اعتبر من زمرة ذوى الولاء للحكومة الألمانية.

وقد ارتكن "نيدرماير" فى اعتراضه على "فون منده" إلى أساسين اثنين. الأول، وهو أساس شائع فى المعارك الأكاديمية فى كل عصر ومصر: أن "فون منده" باحث أكاديمى ضعيف لا يؤبه له. أما الثانى، فكان أساسا تكتنفه الأخطار فى ألمانيا النازية، ومؤداه كون "فون منده" غير لائق سياسيا. وفى خطابه الذى عارض فيه تعيين "فون منده" فى جامعة برلين، قال "نيدرماير": "إن فون منده لديه جماعة من الداعمين له، وإنه غير موثوق ... وبناء عليه فإننى أرى ضرورة أن تخضع أيديولوجيته لمحاكمة للكشف عن كنهها". إن "الجماعة" التى أشار إليها "نيدرماير" هى - على الأرجح - "كتيبة العاصفة". أما الأمر الأكثر

إضرارا بفون منده فكان وضع أيديولوجيته تحت المجهر. ففى ألمانيا النازية، يجب على المرء - ابتداء - حتى يعلو كعبه فى إحدى جامعاتها أن يتبع المنهج الذى خطه "الحزب النازى".

فإما لكونها ردة فعل من "فون منده" إزاء الهجوم الذى تعرض له، أو لمجرد انبعاثها من روح الانتهازية التى اتسم بها، فإن "فون منده" قد اعتنق تماما الأيديولوجية النازية ... إذ توضح خطاباته أنه كان دائم الكتابة لجماعات مناهضة الشيوعية، أو الكتابة لمنظمات "الحزب النازى" التى انخرطت فى الدعاية المناهضة للشيوعية. كذا، فقد شرع "فون منده" فى إعداد عروض كتب للمطبوعات النازية، إلى جانب إسدائه للنصح لمدرسة نازية من مدارس الصفوة - وهى مدرسة أدولف هتلر فى زونتهوفن/ ألغاو فيما تعلق بقرارات التعيين، وذلك بموجب خطاب أرسله "فون منده" فى السادس عشر من آذار/ مارس ١٩٣٨ . كذا، فقد حرص "فون منده" على أن يبقى على اتصال منتظم بجورج لايبرانت، رئيس مكتب الشئون الخارجية بحكومة النازى، وذلك نظرا لأهمية منصبه لفون منده فيما تلا ذلك من مهام.

فى سيرتها الذاتية التى وردت بين دفتى كتاب عنون: "وتمضى الحياة" - ذكرت "كارولين اسبيزيت" أنها كانت تكره "النازى"، وأنها سألت "فون منده" ذات مرة حول ما إذا كان بإمكانهما معارضتهم ... فأردف الزوج بالنفى، إذ كان يعلم من خبرته فى دراسة الاتحاد السوفييتى أن المرء عاجز عن الوقوف فى وجه النظام الشمولى - أيا ما كان. إذا، كان عليهما الطاعة والإذعان.

لذا، فلا عجب أن نشهد أن "معاداة السامية" قد أفردت لها مساحة واسعة من أعمال "فون منده" ... الذى طلب إليه، عام ١٩٣٨، أن ينجز ملصقا ليصدر

عن "حلف مناهضة الكومنترن"[٢٣] ليصف "التهويد الاستثنائى للجهاز الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى". كذا، وانطلاقا من شعوره بالواجب، قام "فون منده" بالرد على أسئلة واردة من "وزارة التعليم" حول زميل يهودى، حيث اقترح على المسئولين ما يمكّنهم من العثور على بيانات ومعلومات موثقة أكثر عنه[٢٤].

وقد وردت أصداء من هذا العمل السياسى ضمن كتاب "فون منده" الثالث والمعنون "شعوب الاتحاد السوفييتى" الصادر عام ١٩٣٩ – وهو كتاب خلا من أية أفكار جديدة فكان أقرب ما يكون إلى "تذكرة" لمشايعى النازية. هذا، وقد اشتملت صفحة العنوان على العديد من الشعارات التى أدرجت لتوضيح أفكار "فون منده" الرئيسية ... شعارات من أمثال: "الشعوب غير الروسية العظيمة فى الاتحاد السوفييتى تسعى لإقامة بلدانها المستقلة"، و"الوعى القومى لدى الشعوب غير الروسية العظيمة قد صحا من رقدته اعتبارا من عام ١٩١٧".

علاوة على ما سبق، فإن الكتاب غاص بمعاداة السامية ... إذ يحتوى على عدد من الشخوص الكاريكاتورية البدائية التى ترصد الجماعات الإثنية فى الاتحاد السوفييتى مخصصا فصلا واحدا عنوانه "اليهود"، وهو الفصل الذى قام "فون منده" فيه ببحث انتشارهم الجغرافى واسع النطاق مترامى الأطراف. ثم يذهب "فون منده" – مستخدما كلمات طنانة جياشة – إلى القول: "إن البلشفية قد أعطت دفعة لتمدد تلك الدوائر اليهودية والتى ترفض كل أشكال التحالفات إلا أن تكون كونفدرالية عصبوية عمادها رابطة الدم ... كونفدرالية تدمر، خلال رغبتها المحمومة لامتلاك السلطة واستخدامها، أى تحالف عضوى فى محيط نفوذها، وبخاصة أية وحدة ما بين الشعوب". ويمضى "فون منده" ليقول: "إن الأرجح هو أن خطر اليهودية الأساسى على الشعوب الأخرى يكمن فى أنها

وحدة لا تقارن "بالدولة"، بيد أنها - فى وحدتها - تفوق وحدة بعض البلدان ... إنه لا يمكن، بحال، إعادة وضع اليهودى فى دائرة جماعته، إذ إنها لا توجد بالأساس، لذا تتوافر - حينها - العوامل التى تخلق منه كائنا انتهازيا، فهو يهودى يريد فى الوقت ذاته أن ينظر المجتمع إليه على أنه روسى أو إنكليزى ... إلخ".

وفى غمار هذا الوابل الصيب من الكلمات، يظل أمر من المرجح أن "فون منده" لم يكن راغبا فى إيراده ... ألا وهو أن سبب كراهيته لليهود هو، ذاته، سبب احتضانه للمسلمين السوفييت. لقد رفض "فون منده" اليهود بسبب ارتباطاتهم "فوق القومية"، إلا أنه قد دافع عن استخدام المسلمين السوفييت بسبب عدم ولائهم للدولة السوفييتية. هذا، ولم يكن كتاب "شعوب الاتحاد السوفييتى" لفون منده جهدا تحليليا على الإطلاق ... إذ عمد فيه إلى إخماد الأسئلة حول مدى موثوقيته السياسية. كذا، فقد أدى الكتاب المذكور إلى تدمير مستقبله الأكاديمى فى فترة ما بعد الحرب، ومن ثم إعادة تشكيل مسار حياته المستقبلية على مدار ربع القرن الذى تلاها.

وعند نشوب الحرب الكونية الثانية عام ١٩٣٩، عمد فون منده إلى تصعيد وتيرة نشاطه السياسى. فبعد أن سقطت فرنسا عام ١٩٤٠، وتأهب النازيون لاجتياح الاتحاد السوفييتى - قام "فون منده" بمساعدة النازيين عن طريق تنظيم صفوف اللاجئين فى برلين لكتابة تقارير عن الاتحاد السوفييتى ... والتى ذهبت رأسا إلى "جورج لايبرانت" - رئيس مكتب الشئون الخارجية بحكومة النازى - والذى كان "فون منده" على اتصال منتظم به.

وفى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤١، نال "فون منده" الشرف المشتهى لأن

يكون أستاذا، إلا أنه لم يكن، حينذاك، فى عداد الأكاديميين. فقبل ذلك بأربعة أشهر، وتحديدا فى الثانى والعشرين من حزيران/ يونيو، قام هتلر بغزو الاتحاد السوفييتى. أما "فون منده"، فقد التحق - فى اليوم نفسه - بالأوستمنستريوم حيث عمد إلى وضع خطط لاستخدام "الإسلام" لمآرب بعينها ... تلك الاستراتيجية التى سيكتب لها الاستمرار طويلا حتى بعد هزيمة النازى.